سَيْرُ المَعْرَكَةِ

سارَ رسولُ الله ﷺ في ألف من أصحابه، وتخلَّف المنافقونَ وكانُوا يمثِّلونَ ثُلُثَ الجيش، فتهيَّأ رسولُ الله ﷺ للقتال وهوَ في سبعمائة من أصحابه، وأمَّر علَى المدينة عبدَ الله بنَ جبير، وقسَّمَ رسولُ الله ﷺ الجيشَ إلى ثلاث كتائبَ:

١) كتيبة المهاجرينَ ويحملُ لواءَها مصعبُ بنُ عُمَيْرٍ.

٢) كتيبة الأوْس ويحملُ لواءَها أسَيْدُ بنُ حُضَيرٍ.

٣) كتيبة الخزرج ويحمل لواءَها الحُبابُ بن المنذرِ.

وأنزلَ رسولُ الله ﷺ الجيشَ في مواقعه وجعلَ منهُ ميمنةً وميسرةً ونظَّمَ المسلمينَ، وفي هذا يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

وكانَ عددُ الرُماة يومئذٍ خمسينَ رجلاً، فقالَ لهُمُ الرسولُ ﷺ:

- انضَحُوا الخيلَ عنَّا، لا نؤتيَنَّ مِنْ قِبَلِكُم، والزمُوا مكانكم إن

(١) آل عمران: ١٢١.

كانت النوبةُ لنَا أو علينا، وإن رأيتُموُنا تَخْطَفُنَا الطيرُ فلا تبرَحُوا مكانكم.

ورفعَ رسولُ الله ﷺ سيفَه قائلاً:

- مَن يأخذُ هذَا السيفَ بحقِّه؟

فقامَ إليه رجالٌ، فأمَسكَه عنهُم، حتَّى قامَ إليهِ أبو دُجانةَ فقالَ:

- وما حقُّه يا رسولَ اللهِ؟

فقالَ:

- أن تضربَ بهِ العدوّ حتى ينحنِي؟

قالَ أبو دجانةَ في ثقة:

- أنا آخذُه يا رسولَ الله بحقِّه.

فأعطاهُ إيَّاهُ. وكانَ أبو دُجانَة رجلاً شجاعًا يختالُ عندَ الحرب، وكانَ إذا اعتمَّ بعصابة لهُ حمراءَ علمَ الناسُ أنه سيقاتلُ بضَراوة، فلمَّا أخذَ السيفَ من يَد رسول الله ﷺ أخرجَ عصابتَه تلكَ، فعَصَبَ بهَا رأسَه وجعلَ يتبخترُ بينَ الصفَّينِ، فقالَ رسولُ اللهِ حينَ رأى أبا دُجَانة

obeikandl.com

يتبخترُ:

- إنها لَمِشْيَةٌ يبغضُها اللهُ إلا في مثل هذا الموطنِ.

أي أنَّ المشْيَةَ التي فيها خُيَلاءُ لا تجوز إلا في مثلِ هذا الموقفِ لإغاظة الكفَّارِ.

وقالَ أبو دُجانةَ وهو يتبخترُ:

أنا الذي عاهدَني خليلي ونحنُ بالسَّفحِ لدَى النخيلِ

ألاَّ أقومَ الدهرَ في الكبولِ أضرب بسيفِ اللهِ والرسولِ

وفي صباح يوم السبت السابع منْ شهر شوال سنة ٣ هـ بدأتْ المعركةُ، وتقاربَ الجمعان، وتدانَت الفئتان، وبدأتْ مراحلُ القتالُ، وكانَ أولُ وقود المعركة حاملَ لواء المشركينَ طلحةَ بنَ أبي طلحةَ العبدريّ.

وكانَ من أشجع فرسان قريش، يسمِّيه المسلمونَ كبشَ الكتيبة خرجَ وهو راكبٌ على جمل، يدعُو إلى المبارزة فأحجمَ عنهُ الناسُ لفرط شجاعته. ولكنْ تقدَّمَ إليه الزبيرُ بنُ العوَّامُ، ولم يمهله، بلْ وثَبَ

إليه وَثْبَةَ اللّيث حتى صارَ معَهُ على جملِه، ثم اقتحمَ به الأرضَ فألقاهُ عنهُ وذبحَهُ بسيفه.

ورأى النبيُّ ﷺ، هذا الصراعَ الرائعَ، فكبَّرَ وكبَّرَ المسلمونَ وأثنى على الزبير.

ثم اندلعتْ نيرانُ المعركة، واشتدَّ القتالُ بينَ الطرفينَ في كلِّ نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقلُ المعركة يدورُ حولَ لواء المشركينَ، فقدْ تعاقبَ بنُو عَبْد الدَّار لحمل اللواء بعدَ قتل قائدهم طلحةَ بن أبي طلحةَ، فتعاقبَ على حمله عشرةٌ منهُم أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحدُ يحملُ اللواءَ، فتقدَّم له غلامٌ حبشيٌّ ما لبثَ أن قُتلَ وسقطَ اللواءُ على الأرض، ولم يبقَ أحدٌ يحملُه فبقيَ ساقطًا.

وبينَمَا كانَ ثقلُ المعركة يدورُ حولَ لواء المشركينَ، كانَ القتالُ المريرُ يجري في سائر نقاط المعركة، وكانتْ روحُ الإيمان قدْ سادتْ صفوفَ المسلمينَ، فانطلَقُوا خلالَ جنود الشرك انطلاقَ الفيضان تتقطَّعُ أمامَه السُّدودُ، وهمْ يقولونَ «أمِتْ، أمِتْ»، وكانَ ذلكَ شعارًا لهُم يومَ أحُد.

وقاتل حمزةُ بنُ عبد المطلب قتالَ الليوث المُهتاجة، فقد اندفعَ إلى قلب جيش المشركين يغامرُ مغامرةً منقطعةَ النظير، ينكشفُ عنهُ الأبطالُ كما تتطايرُ الأوراقُ أمامَ الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعّالة في إبادة حاملي لواء المشركينَ فعلَ الأفاعيلَ بأبطالهم الآخرينَ حتى صُرعَ وهوَ في مقدمة المبارزينَ، ولكنْ لا كمَا تُصْرَعَ الأبطالُ وجهًا لوجه في ميدان القتال، وإنما كمَا يغتالُ الكرامُ في حَلَكِ الظلام[1].

يقول وحشيٌّ قاتلُ حمزةَ: كنتُ غلامًا لجُبيْر بن مُطعم.. فقالَ لي: إن قتلتَ حمزةَ عمَّ محمد بعمِّي فأنتَ حرٌّ.. فخرجتُ معَ الناس وكنتُ رجلاً أقذفُ بالحربة قذفَ الحبشة، فتهيَّأتُ له أريدُه وأستترُ منهُ بشجرة أو بحجرَ ليدنُوَ منِّي، فلمَّا دنا هززتُ حَرْبَتي حتى إذا رضيتُ منهَا دفعتُها عليه فوقعَت في ثُنَّته (تحتَ سرَّته) حتى خرجتْ منْ بين رجلَيْه، وذهبَ لينوءَ[2] نحوي فَغُلبَ وتركتُه وإيَّاهَا حتى ماتَ، ثم أخذتُ حربَتي ورجعتُ، ولم يكن لي بغيره حاجةٌ، إنما قتلتُه لأعتقَ.

* * *

(١) الرحيق المختوم ٢٩١ وسيرة بن هشام ٢/ ٦٨ - ٦٩.

(٢) ينوء: يزحف أو يمشي بتثاقل..

وبينمَا كانَ الجيشُ الإسلاميُّ الصغيرُ يسجِّلُ مرةً أخرَى نصراً ساحقًا على مكةَ لمْ يكنْ أقلَّ روعةً منَ النصر الذي اكتسبَه يومَ بدر إذ وقعتْ من أغلبية فصيلة الرُّماة غَلطَةٌ فظيعةٌ قلبت الوضعَ تمامًا، وأدَّتْ إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمينَ، وكادتْ تكونُ سببًا في مقتل النبيِّ ﷺ، وقدْ تركتْ أسوأ أثرٍ في النُّفُوس وفي هَيْبَتهم، والهيبةِ التي كانُوا يتمتَّعون بهَا بعد بدرٍ.

لقد أسلفْنَا نصوصَ الأوامرِ الشديدة التي أصدرَها رسولُ الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة، بلزومهم موقعهم من الجبل في كلِّ حال منَ النصر أو الهزيمة، لكنْ برَغْم هذه الأوامر المشدَّدَة لَمَّا رأى هؤلاء الرماةُ أنَّ المسلمينَ ينتهبونَ غنائمَ العدوِّ غلبتْ عليهم أثارةٌ من حبِّ الدنيَا، فقالَ بعضُهُم لبعضٍ: الغنيمةَ الغنيمةَ.. ظهرَ أصحابُكُم، فما تنتظرونَ؟ أمَّا قائدهم عبدُ الله بنُ جبير، فقدْ ذكَّرَهم أوامرَ الرسول ﷺ، وقال: أنسيتُم ما قالَ لكُم رسولُ الله ﷺ؟

ولكنَّ الأغلبيةَ الساحقةَ لم تُلْق لهذَا التذكير بالاً، وقالتْ: والله لنأتينَّ الناسَ فلنصيبنَّ من الغنيمة، ثمَّ غادرَ أربعونَ رجلاً منَ هؤلاء

obeikandl.com

الرُّماة مواقعَهم من الجبل والتَحقوا بسَوَاد الجيش ليشاركوا في جمع الغنائم. وهكذَا خلَتْ ظُهورُ المسلمينَ، ولم يبقَ فيهَا إلا ابنُ جبير وتسعةٌ من أصحابه، التزمُوا مواقفَهم مصمّمينَ علَى البقاء حتى يُؤذنَ لهم أو يُبادُوا.

وانتهزَ خالدُ بنُ الوليد هذه الفرصةَ الذهبيةَ ـ ولم يكنْ قد أسلمَ بعدُ ـ فاستدارَ بسرعة خاطفة حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلاميّ، فلمْ يلبثْ أنْ أبادَ عبدَ الله بنَ جبير وأصحابهَ، ثم انقضَّ على المسلمينَ، وصاحَ فرسانُه صيحةً، وعرَفَ المشركونَ المنهزمونَ بالتطُّور الجديد فانقلبُوا على المسلمينَ.. وأحيطَ بالمسلمين من الأمام والخلفَ، ووقعُوا بين شقَّيْ رَحَى[1]، وأحاطُوا بالرسول ﷺ، فدافعَ المسلمونَ عنْ رسولهم ﷺ ومنعوه من المشركينَ، ولكنْ كُسرَتْ رَباعيَتُه، وشُجَّ وجهُه وهو يقولُ: «لَنْ يُفلحَ قومٌ شَجُّوا وجهَ نبيِّهم وهوَ يدعُوهم إلى الله».

وكُسِرَتْ رَبَاعيَته اليُمْنَى السُّفْلَى، وجُرحَتْ شَفَتُه العُليا، ودخلَت

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٢ والرحيق المختوم ٣٢٠.

حلقتان من المِغْفَر في وجهه الشريف، فأخرجَ أبو عبيدةَ عامرُ ابنُ الجراح إحداهُما بأسنانه فسقطَتْ ثَنيَّتُه، ثم أخرجَ الأخرَى فسقطَتْ ثنيَّتُه الأخرَى فلُقِّب بذي الثَّنيَّتين.

وانطلقتْ إشاعةُ قتلِ النبيِّ ﷺ، فذهلَ كثيرٌ من المسلمينَ، ومنهُم منْ ولَّى هاربًا، ثم رجعَ استحياء. وفي شأنهم نزلَ قولُ الله تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١).

ولقدْ ثبتَ رسولُ الله ﷺ، وظلَّ يجاهدُ ويدافعُ منْ كلِّ جهة وهوَ يقولُ: إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، فتجمَّع حولَه جَمْعٌ من أصحابِه، فسارَ بهمْ حتى وصلَ إلى الصخرة التي فوقَ الجبلِ.

وهكذَا انتهت المعركةُ دون أن يحصُلَ أحدٌ من الفريقين علَى نصرٍ كاملٍ، فقدْ كانَتْ الغَلَبَةُ في بداية المعركة للمسلمينَ ثمَّ ظهرَ عليهم المشركونَ، ولكنَّ صمودَ المسلمينَ وبسالَتهم مكَّنَتْهُم من انسحابٍ ذكيٍّ دونَ أن يحصلَ المشركونَ على النصر، بدليل أنَّهم لم يتعقَّبُوا المسلمينَ

(١) آل عمران: ١٥٥.

ولمْ يأخُذُوا منهُم غنائم. ولقد صَعدَ أبو سُفيانَ بنُ حربٍ واقتربَ من المسلمينَ - بعدَ المعركة - وقالَ: أفي القوم محمدٌ؟

فقالَ النبيُّ ﷺ للمسلمين: لا تجيبوه.

ثمَّ قالَ أبوسفيانَ: أفي القوم ابنُ أبي قحافَة؟ أفي القوم ابنُ الخطاب؟ والنبيُّ ﷺ يقولُ: لا تُجيبوهُ.

فقالَ أبو سفيانَ: إنَّ هؤلاء قُتلوا، فلو كانُوا أحياءَ لأجابُوا.

فلمْ يملكْ عمرُ نفسَه أنْ قالَ: كذبتَ والله - يا عدوَّ الله - إنَّ الذي عددتَ لأحياءُ وقدْ بقيَ لكَ ما يسوؤك.

فقالَ أبو سفيانَ: يومٌ بيومِ بدرٍ، والحربُ سجالٌ.

فقالَ لهُ عُمَرُ: لا سواءَ؛ قتلانَا في الجنةِ وقتلاكُم في النارِ.

ثمَّ قالَ أبو سفيانَ: أُعْلُ هُبَل.

فقالَ النبيُّ ﷺ: أجيبوا.

قالوا: ما نقولُ.

قالَ لَهُم قولُوا: اللّه أعلَى وأجلّ

قالَ أبو سفيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكُم.

قالَ: قُولوا: اللهُ مولانا، ولا مولَى لكُم.

ثمَّ قالَ أبو سفيانَ: إنَّ موعدَكُم بدرٌ العامَ المقبلَ.

فقالَ النبيُّ ﷺ لرجل من أصحابِه: قلْ: نَعَمْ، هو بيننَا وبينكُم موعدٌ.

* * *

واستُشهد في غزوة أحُد من المسلمينَ سبعونَ منهم ستةٌ منَ المهاجرينَ، والباقِي من الأنصارِ، وقتلَ من المشركينَ عشرونَ.